# الجانب الصوفي
## في الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

— ٤ —

لم يقف تصوف الفارابي عند المدرسة الفلسفية ، بل تعداها إلى مدارس أخرى صوفية في الاسلام . وعلى رأس هذه المدارس يجب أن نضع مدرسة الأشراقيين التي عاشت في بلاد الفرس إلى القرن السابع عشر . ومؤسس هذه المدرسة هو السهروردي أو الشيخ المقتول المتوفى سنة ١١٩١ م . وكان ذا اطلاع واسع وخبرة تامة بالفرق الفلسفية التي تأثر بها عامة ورجال مدرسة الاسكندرية وفلاسفة الاسلام السابقين بوجه خاص . ويظهر أن سعة اطلاعه ولدت فيه رغبة التوفيق بين الفلسفات والفلاسفة المختلفين[١] . فالفلاسفة عنده رجال أسرة واحدة وفروع شجرة مباركة تمد الأنسانية بما فيها من ثمار وخيرات . أميدوقل وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطوطاليس وبوذا وهرمس ومزدك ومانى ، وإن انتسبوا الى شعوب مختلفة ، هم أبناء الأنسانية أولا وبالذات ورسل السلام والاصلاح[٢] . وعلى الجملة زهاد الهند وفلاسفة الاغريق وحكماء العراق يسعون وراء غاية واحدة ، ويعملون على نشر نظرية ثابتة ، وينطوون تحت لواء فلسفة واحدة ، هي الفلسفة الأشراقية . ومبدأ هذه الفلسفة وأساسها الأول أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الكائنات . فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي . والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها[٣] . فالفلسفة الأشراقية تعتمد إذن على نظرية العقول العشرة الفارابية مختلطة بعناصر مزدكية ومانوية

وإذا كان العالم في جملته قد برز من أشراق الله وفيضه ، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والأشراق . فأذا ما تجردنا من اللذات الجسمية تجلى علينا نور الهي لا ينقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الانساني ؛ وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها . ويسمى الروح القدسة أو على لغة الفلاسفة العقل الفعال[١] . ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التي تعيننا على كشف الغيب في حال اليقظة والنوم . وليس للتصوف من غاية إلا هذا الارتباط ؛ والأشراقيون يسمون اليه ما استطاعوا وكثيراً ما ينعمون به . أما الأنبياء فهم في اتصال دائم وسعادة مستمرة . يقول السهروردي : « إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت ، وإنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلها ، فاذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تتخلص أحياناً إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها القدس وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منها المغيبات في نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذي نفس »[٢]

فالفلسفة الاشراقية التي دعا اليها السهروردي متأثرة في بدئها ونهايتها بتعاليم الفارابي ، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية ونزاعة إلى العالم العلوي ؛ غير أن هذه الفلسفة صوفية كلها أو التصوف هو كل شيء فيها ، في حين أنه لدى الفارابي ليس إلا قطعة من مذهب متنوع الأجزاء . هذا إلى أن الأشراق لا يقنع بالاتصال بالعقل الفعال وحده ، بل يطمع في الاتحاد بالله مباشرة والامتزاج بنور الأنوار[٣] ؛ فكأن السهروردي حين دعى للاختيار بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابي رأى أن يجمع بينهما ، وأن يقول بالاتصال والاتحاد معاً ؛ وهذه نزعة توفيق أخرى تتفق مع روحه العامة

هذا التصوف العقلي المبني على فكرة الفيض يبدو كذلك عند صوفي وفيلسوف آخر من رجال القرن الثالث عشر . ونعني

(١) Van den Bergh, Suhrawardi, dans Encyc. de l. Islam
(٢) السهروردي ، حكمة الأشراق ، ص ٣٧١
(٣) السهروردي ، هياكل النور ، ص ٢٨ — ٢٩ و ٣٢

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٨
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ — ٤٥
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ — ٤٦ — حكمة الاشراق — ص ٣٨١

به ابن سبعين المفكر النقادة الذى لم يُدرس بعد دراسة كافية ، ولا ثقة به على الرغم مما فى آرائه من حصافة وفى أفكاره من عمق ودقة . وعل أكبر مصدر نعتمد عليه فى تعرف نظرياته هو المراسلات التى دارت بينه وبين فردريك الثانى ملك ألمانيا وأمبراطورها المتوفى سنة ١٢٥٠ . وقد بقيت هذه المراسلات مجهولة الى أن اهتدى إليها المستشرق الايطالى أمرى سنة ١٨٥٣ فى مخطوطة من مخطوطات أكسفورد تحت عنوان : الرسائل الصقلية[١] . وبعده بنحو عشرين سنة قام بتحليلها فى الصحيفة الأسيوية الفرنسية المستشرق الدنمركى المشهور مهرن[٢] . وقد وقفنا بأنفسنا على هذه المخطوطة فوجدناها مملوءة بالعلامات والملاحظات الدقيقة ، وما أجدرها بأن تطبع وتنشر . وكانا يعلم ما كان عليه فردريك الثانى من رغبة فى العلم وحب للأدب والفلسفة العربية . لهذا وجه الى ابن سبعين عالم صقلية وفيلسوفها فى ذلك العهد أربعة أسئلة متعلقة بقدم العالم ، والمقولات العشر وما وراء الطبيعة فى غايته ومبادئه ، وطبيعة النفس . وهذه الأسئلة تلخص تماماً المشاكل الهامة التى كانت تشغل المفكرين عامة وتلاميذ أرسطو على الخصوص فى ذلك العصر . وقد أجاب عليها ابن سبعين إجابة موسعة مستفيضة بحيث ضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة ؛ وفى مقدور من يرجع إليها معتمداً على بعض المصادر الأخرى أن يكوّن فكرة كاملة عن نظرياته الصوفية والفلسفية . ولسنا هنا بصدد هذا البحث المطول ؛ وسنكتفى بأن نشير إلى ما يتصل منه بموضوعنا . فالله فى رأى ابن سبعين أصل العقول المتصرفة فى الكون ، صدرت عنه بمحض الفيض والأنعام ، والعقل الفعال وهو أحدها يدير شؤون الأرض ويمد الكائنات بصورها النباتية ، فهو مصدر النفوس البشرية على الاطلاق ؛ وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهى ميالة دائماً إلى الاتصال به ؛ ولا يحول دونها وذلك إلا أدران الجسم وشهواته . فاذا ما تفرغ الانسان للدراسة والنظر فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، وسما إلى درجة العقل الفعال[٣]

(١) Amari, Journal asiatique, 1853, 5e série, t. I, Fév-mars.
(٢) Mehren, Ibu Sab'in, Correspondance avec l'empereur Frédéric II dans Journal asiatique, t. XIV (1879).
(٣) Ibid., p p. 459—360, 423 — Massignon, Rècueil, p. 133.

هذه النظرية ، كما نرى ، تكرار حرفى لما قاله الفارابى وابن سينا ، وصاحبها نفسه يصرح بأنه أرسطى كسابقيه من فلاسفة الاسلام وإن كان ينقدهم نقداً مراً[١] . وقد بنى تصوفاً عقلياً على أساس فلسفى فهو صوفى على طريقة الفلاسفة[٢] ؛ وفيما يتعلق بمشكلة الجذب والالهام يخيل إلينا أنه أميل إلى الفلاسفة منه إلى الصوفية ؛ فهو يرفض الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما الحلاج ويقصر السعادة على مجرد اتصالنا بالعقل الفعال وارتباطنا به ارتباطاً روحياً معنوياً[٣]

فتصوف السهروردى وابن سبعين مؤسس على دعائم فلسفية . وفى رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائناً آخر واجب الوجود بذاته ليمنحه الوجود ويفيض عليه بالخلق والابداع . وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله جل شأنه ؛ فهو موجود أزلاً بنفسه ودون حاجة إلى أى موجد آخر وإلا امتدت السلسلة إلى ما لا نهاية . والكائنات الأخرى جميعها مظاهر لعلمه وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود ؛ فوجودها إذن عرضى وبالتبع . وعلى هذا ليس ثمت إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة ، بل هو الوجود كله ، والكائنات الأخرى لا تسمى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز . هذه هى نظرية وحدة الوجود التى اعتنقها جماعة من الصوفية بعد انحطاط الدراسات الفلسفية فى الاسلام . وقد تكونت فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وانتشرت بعد ذلك فى بلاد الأندلس والمشرق . ومن أكبر أنصارها محيى الدين بن العربى المتوفى سنة ١٢٤٠ ميلادية ، وجلال الدين الرومى المتوفى سنة ١٢٧٣ ، وشعراء آخرون من متصوفة الفرس[٤] . ويصعد مذهب الوحدة هذا كما لاحظ ابن تيمية إلى ابن سينا ، أو كما نلاحظ نحن إلى الفارابى[٥] . وإذا كان الله هو الموجود الحق وجب أن تتلاشى فيه سائر الموجودات الأخرى . وهنا يختلط التصوف بالفلسفة اختلاطاً كبيراً . فكأن مذهب المشائين من العرب لما حورب فى شخص

(١) Ibid., p p. 129 et suiv.
(٢) Mehren, Journal asiatique 145.
(٣) Ibid., p. 390.
(٤) Nicholson, The Legacy of Islam, p p. 223 et suiv.
(٥) Massignon, Recueil, p. 187.